المقتطف

الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة

١ اذار (مارث) سنة ١٨٩١ الموافق ٢٠ رجب سنة ١٣٠٨

جهاد العلماء

النبذة الثانية في ارتقاء الانسان

تمهيد

لم يكن من غرضنا ان نستطرد البحث الى هذا الموضوع قبل ان نستوفي الكلام على اكثر فروع العلوم الطبيعية الاَّ ان كثيرين من القراء رغبوا الينا ان نبيّن لهم ما وصل اليهِ مذهب النشوء والارتقاء في اعتبار العلماء ولاسيّما علماء المذهب الكاثوليكي فرأينا ان نقدّم الكلام في النشوء على غيرهِ من المباحث وان نستفتح البحث بمقالة لعالم من اكبر علماء الكاثوليك ان لم يكن اكبرهم واشهرهم وهو العالم المحقق والباحث المدقق الاستاذ سنت جورج ميفارت صاحب التصانيف الكثيرة وند الشهير داروِن في المباحث البيولوجية . وقد نشر هذه المقالة في جريدة القرن التاسع عشر الانكليزية سنة ١٨٨٥ . وبعد ان مضى عليها سنتان تداولها ايدي القراء وينظر فيها الباحثون والمنتقدون . ارفقنا بمقالة اخرى نشرها في جريدة القرن التاسع عشر ايضاً واشار فيها الى المقالة الاولى فقال "لقد مضى سنتان منذ نشرت مقالة في هذه الجريدة بحثت فيها عن العلاقة بين المذهب الكاثوليكي والحرية العلمية وكان غرضي حينئذٍ ان ابيّن ان الكاثوليك الرومانيين مثل غيرهم من الناس احرار ليسلّموا بمذهب النشوء بنوع عام وبنشوء جسد الانسان الطبيعي بنوع خاص (اي بارتقاء الانسان من الحيوانات جسداً) وبنيت ادلتي على الحوادث المتعلقة بحكم رومية الجائر على ذلك العالم الشهير الشيخ غاليليو . وبما انني كنت عالماً ان كثيرين من الفضلاء في قلق شديد من جهة مذهب النشوء الذي بنيتُ عليهِ كلامي حينئذٍ اجتهدتُ لكي ازيل قلق افكارهم بقدر طاقتي فاوضحتُ

آرائي على اسلوب ادعو بهِ كل منتقد الى الانتقاد في ما اذا كان مذهب النشوء يستوجب الانتقاد . ولا بدَّ من ان كثيرين قد حسبوا انني عرَّضتُ نفسي للملامة وكثيرين غيرهم طلبوا ان أُحاكَم ويُحكَم عليَّ . ثم عُلِم ان غيرة الذين طلبوا محاكمتي كانت اشد من حكمهم لانهُ حتَّى الساعة لم يُظهِر احد من روَّساء الكنيسة عدم استحسانهِ لما كتبتهُ لا سرًّا ولا علنًا بل ان كثيرين من الروَّساء قد سرُّوا بما كتبتهُ وهنَّأوني بهِ . وفي اوائل هذه السنة كتب اليَّ رئيس احدى الطغمات الدينيَّة الشهيرة يقول "منذ ما كتبت مقالتك في جريدة القرن التاسع عشر قد اتفق لي مرارًا كثيرة أن اوضحت ما فيها لكثيرين في انكلترا وفي غيرها . وليس في تلك المقالة شيء يخالف الدين القويم وهذا هو رأي الكردينال . . . . ايضًا لانني باحثتهُ في موضوعها . والمقالة مفيدة جدًّا حتَّى لعلم اللاهوت . ومما يؤسف عليهِ ان الذين يعلِّمون اشرف العلوم (اي علم اللاهوت او علم الكلام) هم على جانب عظيم من التعصُّب وضيق الافكار . واما اللاهوتيون الراسخون المواسعو الافكار فقليل ما هم وقلَّما يبدون اراءهم بالكتابة . غير انهُ يسرني ان اقول انَّ لهم نفوذًا في المقامات العليا اكثر مما يُظَن . واما الذين يضجون ويصخبون كثيرًا فمعارفهم قليلة حتَّى في علم اللاهوت وادعاؤهم بالعلم وتقلبهم واعتداؤهم وتكبرهم لمَّا يوجب الاسف . ومهما يكن من امر رجال العلم فانهم قد اجتهدوا لكي يتقنوا علوم عصرهم الطبيعيَّة وقد انحطت العلوم الدينيَّة من حين اهمل اهلها العلوم الطبيعيَّة فصحت نبوة روجر باكون وبلغ من امر الفلسفة ان حكمت على غاليليو ذلك الحكم الذي لا يعقل" . قال الاستاذ ميفارت فيظهر لي ما تقدَّم انهُ قد زال كل تناقض بين الكنيسة وعلم البيولوجيا وقال في مكان آخر انهُ عرض اراءهُ التي في المقالة المشار اليها على اعتاب السدَّة الرسوليَّة في رومية فانعم عليهِ البابا بيوس التاسع بالدكتوريَّة الرومانيَّة . ولذلك فكل ما سننقلهُ عنهُ من الآراء معروض على السدَّة الرسوليَّة الرومانيَّة ومصادَق عليهِ من الحبر الاعظم ومن جمهور من الكرادلة ورؤساء الكنيسة . ومعلوم ان الكنيسة الرومانيَّة من احذر الكنائس المسيحيَّة في قبول الاراء العلميَّة الجديدة فاذا صادقت على ان مذهب النشوء غير مناقض للدين المسيحي كانت مصادقتها هذه حجة تقطع لسان كل مكابر من ابناء الكنائس الكاثوليكيَّة وتسحق الاعتبار من ابناء الكنائس الاخرى . نقول ذلك ونحن انفسنا لم نقُل قط ان مذهب النشوء هو المذهب الصحيح ولا انهُ قد ثبت ثبوتًا ينفي كل ريب بل ان خلاصة ما قلناهُ وما نقولهُ هو ان اكثر العلماء قد سلَّموا بهذا المذهب واعتقدوهُ صحيحًا . وقولنا هذا بمثابة قولنا ان التليفون انتشر انتشارًا عظيمًا في اوربا واميركا وان اكثر النوادي الكبيرة قد انيرت

بالنور الكهربائي اي انهُ حقيقة علميَّة تاريخيَّة لا يُنكَر المتطف اذا اغضى عنها كما لا يُعذَر مؤرخ تقدم القرن التاسع عشر اذا لم يذكر شيئًا عن التليفون والنور الكهربائي لا سيَّما ونحن عالمون علم اليقين ما كتبهُ ميفارت وغيرهُ من اساقفة المذهب البروتستنتي ان مذهب النشوء قد عدَّ الآن بين المذاهب الراجحة ان لم نقل الصحيحة وان بعض علماء الدين يشيرون اليهِ كدليل من الادلة الكثيرة على عظمة الخالق جلَّ جلالهُ كما يشيرون الى مذهب كوبرنيكس الملكي الذي بيَّن ان الارض صغيرة جدًّا بالنسبة الى الاجرام السماويَّة بعد أن حكموا على القائلين بهِ بالكفر . واذ قد تمهد ذلك نلخّص لك مقالة العلَّامة ميفارت مراعين الاصل ما امكن

مقالة ميفارت

لم يخلُ عصر من العصور من اناس احدوا النظر الى المخلوقات الحيَّة وابحث في طبائعها . والآثار القديمة الَّتي صوِّرت عليها صورة الفيل والوعل قبل عصر التاريخ اصدقُ دليل على ذلك . واقدم كتبنا الدينيَّة مشحون بما يدلُّ على ان الناس كانوا يراقبون اطوار الطيور والوحوش كما يراقبون حوادث الكون وشاهدنا على ذلك ارسطو وألبرتس وجملة وهم امثلة على رغبة الناس في معرفة امور الكون في العصور القديمة والوسطى والحديثة . ومهما تكن هذه الرغبة شائقة لاصحابها ومهما يكن تأثير نتائجها في خير الناس فانها لم تؤثر قبلاً في احوالهم المعاشيَّة والسياسيَّة تأثيرًا ظاهرًا واضحًا . والامر على خلاف ذلك الآن فان علم البيولوجيا الذي كان يُطلَب قبلاً لمجرَّد ما فيهِ من اللذة والفكاهة صار الآن من العلوم المهمَّة واعترف الجمهور بانهُ يؤثر في خير الناس مباشرةً . ولما من احد لهُ ادنى المام باحوال العالم الاَّ وهو يعلم ان علم البيولوجيا قد امتدَّ من بيوت العلماء الى مجالس الوزراء ومنابر الخطباء وهو يفعل الآن بسياسة الممالك واديان اهاليها

وليس في هذا القول شيء من المبالغة ودليلي على ذلك شهادة الرجال العظام الَّذين يُعلَم من مقامهم وسوابقهم انهم لا يقدِّرون العلوم الطبيعيَّة فوق قدرها . قال المحترم الدكتور بري وهو من الكتَّاب الكاثوليك المشهورين ومن اساتذة اللاهوت" انهُ مما لا يمكن انكارهُ ان علماء العلوم الطبيعيَّة قد تغلبوا او سيتغلبون على علماء الاديان وان جمهور الناس يرى الآن القول الفصل ليس للكهنة ولا للفلاسفة بل لعلماء الطبيعة" . واذا كان الامر كذلك واختياري يؤيدهُ فقد آن لخدمة الدين الَّذين يريدون ان لا تزول سلطتهم ان يكون لهم المام بعلم البيولوجيا بل آن يكون بينهم اناس مشهورون بمعرفتهِ . وعند الدكتور

يرى ان سلطة خدمة الدين قد ضعفت لانهم اهملوا العلوم الطبيعيّة . وما قالهُ في هذا الشأن " انا نحصد الآن ثمار احتقارنا لمصنوعات الله " واستشهد بقول الاب بلميريه الثقة الذي قال " ان اهمال رجال الدين لدرس العلوم الطبيعيّة من اكبر بلايا القرون الثلاثة الاخيرة "

وعلى الكاثوليك ان يصغوا الى صوت رجل تكلم من رومية باعظم سلطان يجب الخضوع لهُ حالًا كهنتهم على درس العلوم الطبيعيّة وهو الكردينال بترا العالم البندكتي الشهير فانهُ كتب يقول " يحسن بالكهنة الذين يرون في علم اللاهوت منتاحًا لكل العلوم الطبيعيّة ان لا يهملوا علمًا منها ويجب ان يكون بيننا ايضًا اناس يخصصون انفسهم لكل فرع منها "

وما يزيد هذا الكلام سلطةً انهُ لم يطبع الاّ بعد ان وافق عليهِ الحبر الاعظم الذي نعلق بالكلام الآتي حالًا على وجوب التدقيق الكلي في علم التاريخ وهو " ان مقدار الضرر الذي ينتج من درس تاريخ مشوب بالغرض لمما يعسر تصوّرهُ لانهُ لا يكون مرشدًا للحياة ولا نورًا للحق بل آلة للشر ووسيلة للخراب واننا لفي حاجة الى اناس يكتبون متوخّين اظهار الحق بكليتهِ . واوّل شرط واجب على المؤرخ هو ان يخشى الكذب والثاني ان لا يخشى في تقرير الحقائق لومة لائم واخيرًا ان لا تكون كتابتهُ عرضة لمظنّة التحزّب او البغضة " (رسالة البابا ليون الثالث عشرة بتاريخ ١٨ اوغسطس سنة ١٨٨٣)

واوّل مقالة كتبتُها الى هذه الجريدة كان غرضي منها ان ابيّن ما بين العلم والدين من الاتفاق بحسب اعتقادي . فانني كخادم امين للعلم قد خدمت علم البيولوجيا منذ عدة سنين ولم انتازل عن شيء من حقوقهِ . وكابن امين للكنيسة الكاثوليكيّة لم اذكر شيئًا للتوفيق بين العلم والدين الاّ بعد ما صدّق لهُ اناس من اشهر علماء اللاهوت المعتبرين في كل مكان . وبما انني اخذت على نفسي ان اقوم مقام موفّق بين العلوم الطبيعية والتعاليم الدينيّة اراني مرتبطًا شرفًا وعدلًا بالرجوع عما اقولهُ اذا تبيّن بالاكتشافات العلميّة الحديثة او الاحكام الدينيّة الجديدة انهُ غير سديد . وما من احد يقدر ان يتّبع طريق العلم الحقيقي او الدين الحقيقي ما لم يكن عندهُ الحق المجرّد المقام الاوّل فوق كل شيء

وبعد ان نشرتُ تلك المقالة ناقضها البعض باقوال يدلُّ ظاهرها على انها صادرة من قبل الكنيسة الكاثوليكيّة وان صح ذلك فقد اضللت القراء الذين يسلمون بصحة اقوالي ومن

الذين ناقضوني المحترم ارميا مرفي بمقالة نشرها في جريدة دينيّة وقد اولاني شرفًا بانتقادهِ آرائي في مذهب النشوء بنوع عام وفي نشوء جسد الانسان بنوع خاص. واني اشكرهُ على ما اظهرهُ من الاعتبار لي ولكنهُ قد سنّهُ كل الامور التي اردت ان ابين امكانها ان لم اقل رجحانها فانكر انهُ يجوز للكاثوليك ان يسلموا بان جسد الانسان الاول نشأ نشوءًا طبيعيًا بنفس النواميس الثانويّة التي بموجبها نشأت اجسام بقيّة الحيوانات بحسب ما يحكم بهِ كل من يحق لهُ ان يبدي رأيًا في هذا الموضوع فقال

" اذا اردنا ان نبحث عن صحة هذا المذهب فلا حاجة بنا ان نلتفت الى الاشنان وساكنات الاوجار ولا الى طوائف القردة بل الى الانسان نفسهِ لان ما يصدق عليهِ يصدق على غيرهِ واذا كان رؤساء الكنيسة قد اوضحوا كينيّة تكوّن جسد ابوينا الاولين فعلينا ان نسلم بما قالوا كانهُ حكم مجمع مسكوني . . . . وقد اجمع لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكيّة ومعلّموها على كينيّة تكون جسد ابوينا الاولين واجماعهم فرض علينا بموجب حكم المجمع الفاتيكاني ولذلك فلا يمكننا ان نسلم بمذهب النشوء . . . واذا كان هذا المذهب صحيحًا فيكون كتاب التوراة قد ارادنا خداعنا فقد جاء في سفر التكوين ان الرب الاله صنع الانسان من تراب الارض وقيل في سفر ايوب يداك كوّنتاني وصنعتاني وينهم من هاتين الآيتين ومن آيات اخرى كثيرة مثلها ان الله نفسهُ صنع جسد آدم وجسد حواء بيديهِ. ويمكننا ان نتمسك بهذا المعنى (الحرفي) الى ان يبين لنا اصحاب مذهب النشوء سببًا كافيًا لتركهِ وهم لم يبينوا حتّى الآن سببًا كافيًا فلذلك لسنا مضطرين ان نترك معنى الكتاب الظاهر من جهة خلق الانسان "

ثم ذكر بعضًا من اللاهوتيين المتقدمين والمتأخرين الذين ناقضوا مذهب النشوء. وقال " أيليق بنا ان نترك ايمان كل القرون السالفة لكي نصدّق احلام المدّعين الفلسفة في هذا الزمان" . . . . وناقض بعض الاقوال التي قلتُها مثل قولي ان اشد الكاثوليك تمسكًا بالمذهب الكاثوليكي لهم الحريّة المطلقة ليسلّموا بمذهب النشوء. والاقوال والاحكام التي استشهد بها على مناقضتي تحقق اشد الاعتبار لولا مسألة سابقة . وليس من غرضي ان انظر في شيء من شواهدهِ لانني اعتقد صدقها كلها ولا ان انظر في ادلتهِ لانني اعتقد انها كلها فاسدة المقدمات . . . . وهو من جملة المعارضين الذين يظهر خطأهم كيفما انقلبوا ومثاله مثل الذين انكروا دوران الارض وحكموا على القائلين بهِ بالكفر

وربّ معترض يقول ان هؤلاء تكلموا بسلطان يجب على كل المؤمنين ان يخضعوا

له ولذلك فلا بدّ من المناقضة بين العلم والدين . فاجيب ان مناقضة رجال الدين للحقائق العلميّة هي التي اعطت الحريّة العلميّة للكاثوليك المخلصين الّذين يسيرون على هدًى ولا يغمضون عيونهم عن رؤية ما علّمناهُ الله في تاريخ كنيستهِ كما سابين ذلك بالتفصيل لان الدين الصحيح لا ينفي اطلاق الحريّة التامة لكل الآراء العلميّة ولتقدّم كل فرع من فروع العلوم . وهذا الامر يجب تقريرهُ جيدًا اراحةً لافكار علمائنا الطيعيين الكاثوليكيين مثل مارّ وشوان ووغنر ودلينو وفان بندن وغودري وغيرهم . ويمكننا ان نثبت وجود هذه الحريّة العلميّة ممّا حدث في الزمان القديم من الخلاف بين العلم والسلطة الكنسيّة فانهُ حدث حينئذٍ نفس ما هو حادث الآن بين علماء البيولوجيا من الجهة الواحدة وبعض خدمة الدين من الجهة الاخرى . ومن اوضح الامثلة لذلك مسألة دوران الارض . بل ان علماء الدين الآن لم يناقضوا مسألة نشوء الانسان كما ناقض اسلافهم دوران الارض فان اولئك حكموا بفساد مذهب غاليليو حكمًا بائنًا واما هؤلاء فلم يحكموا بفساد مذهب النشوء

في سنة ١٦١٥ كتب الكردينال بلارميني الى الاب فسكاريني الكرملي يقول "انك تعلم ان المجمع التريدنتيني حظر علينا تفسير الكتاب المقدّس بما يخالف ما اجمع عليهِ الاباء القديسون فاذا قرأت كتب الاباء القديسين وكتب المحدثين الّذين شرحوا بها سفر التكوين والمزامير والامثال ووجدت انهم كلهم متمسكون بالمعنى الحرفي وهو ان الشمس في السماء وانها تدور حول الارض بسرعة عظيمة وان الارض بعيدة جدًا عن السماء وهي ثابتة في مركز الكون غير متحركة فهل يمكن الكنيسة ان تسمح بتفسير الكتاب بما يخالف ما فسّرهُ بهِ الاباء القديسون والمفسّرون المُحدثون"

وفي سنة ١٦١٦ حكم المجمع المقدس على ذلك التعليم الفيثاغورسي الكاذب المناقض للكتاب المقدس على خط مستقيم من جهة دوران الارض وثبوت الشمس وبهِ حكم على كتب كوبرنيكس ونحوها . وهناك امر آخر ضد الراي الكوبرنيكي الذي يعتبر الآن حقيقة من الحقائق العلميّة وهو انهُ بامر البابا اربانوس الثامن وضع ديوان التفتيش بعض الاحكام لكي يعلم العلماء الكاثوليكيون ما يجب ان يعتقدوا بهِ من جهة هذا الموضوع وهي

" ان القول بان الشمس مركز الكون وانها ثابتة في مكانها محال وهو فاسد فلسفيًا وكفر دينيًا لانهُ يناقض الكتاب المقدس مناقضة صريحة . والقول بان الارض ليست مركز الكون ولا هي ثابتة بل هي متحركة ولها حركة يوميّة محال ايضًا وفاسد فلسفيًا واذا اعتبر

لاهوتيًا فهو خطأ في الايمان على الاقل"

وجاء في الحكم الذي صدر على غاليليو الكلام الآتي

"نقول ونحكم ونعلن انك انت غاليليو المشار اليه بما انك قد اعتقدت وتمسكت بتعليم فاسد ومخالف للكتب المقدسة وهو ان الشمس في مركز العالم وانها لا تدور من الشرق الى الغرب وان الارض تدور وهي ليست مركز الكون وانه يمكن التمسك برأي والهاماة عنه كأنه رأي صحيح بعد ما أُعلن عنه انه مخالف للكتاب المقدس فقد جعلتَ نفسك متهمًا بالكفر تهمة شديدة"

فاضطرّ غاليليو ان يقول انني بقلب مخلص وايمان غير متزعزع ارفض واَلعن واَنبذ الاغلاط والهرطقات المذكورة آنفًا. ثم ان البابا اسكندر السابع صادق على صحة احكام هذا المجمع في المنشور الذي نشرهُ سنة ١٦٦٤

وقد يقول البعض انهُ حينما حكمت الكنيسة بان اراء غاليليو مناقضة للكتاب المقدس واجماع الآباء عنت بذلك ان هذه المناقضة هي في الحرف لا في المعنى. فاقول انهُ اذا كان الامر كذلك فلم يكن داعٍ لان البابا نفسهُ يعلن وجود هذه المناقضة. بل ان الذي عُدَّ كفرًا حينئذٍ هو مناقضة هذا المذهب لكتاب الله فقد اتهم غاليليو بانهُ متمسك بمذهب كوبرنيكس اي بالكفر وقد أُمر ان يقول اني متهم بالكفر اي بانني اقول ان الارض تدور والشمس لا تدور

وبعدُ فما هي نتيجة حكم الكنيسة على مذهب كوبرنيكس في القرن السابع عشر وحكم بعض رجالها على مذهب النشوء في القرن التاسع عشر. وما هو تأثيرهما في رجال العلم عمومًا سواء كانوا من علماء الفلك او الجيولوجيا او البيولوجيا او التاريخ او الانتقاد الكتابي – التأثير عظيم جدًّا وكبير الاهمية. وقد قال البعض ان الكنيسة الجامعة منعت بقوة الهية من ان تحرم جميع المسلمين بالمذهب الكوبرنيكي واما انا فاقول ان العناية الالهية قد سمحت لها بارتكاب هذا الخطإ الفظيع في حكمها على فساد المذهب الكوبرنيكي وهو مما يجب على الكاثوليك ان يشكروا الله لاجلهِ (كأنهُ يقول ان هذا الخطأ حفظها من الوقوع في الخطإ مرارًا أخرى واطلق الحرية لرجال العلم ليتمسكوا بما يثبت لهم من المذاهب العلمية)

وقد قيل انهُ حكم على غاليليو لانهُ ارتأى رأيًا يفسّر بهِ الكتاب تفسيرًا غير صحيح. والذين حكموا عليهِ لم يحكموا على قضية علمية ولم يعاوقوا سير العلوم. ولكنني اقول ان الامر على الضد من ذلك فان الذين حكموا عليهِ قد حكموا بفساد حقيقة علمية واقاموا عثرة في

سبيل العلوم وكان حكمهم الفاسد في تفسير الكتاب سنداً لهم في حكمهم على فساد هذه الحقيقة الطبيعيّة . وفي هذا الامر اصاب رجال العلم واخطأ رجال الدين . ومن المقرّر ان الجميع يسلّمون الآن بصحة المذهب الكوبرنيكي ولكن رجال الدين لم يعتذروا حتّى الآن عمّا فرط منهم في حق غاليليو وكوبرنيكس . وانا نشكر الله على ما حدث لان حدوثه قد اطلق لنا الحريّة العلميّة ورفع عن ظهورنا حملاً ثقيلاً لا يُطاق

ولا يُنكَر ان رجال العلم كانوا يترددون في معاني بعض الاقوال الكتابيّة التي يدلّ ظاهرها على انها مخالفة للحقائق العلميّة ولكنهم كانوا يحسبون تلك الاقوال غير ضروريّة للدين . اما رجال الدين فلم يرضهم ذلك بل حتموا بانها ضروريّة وبانهم هم مخوّلون منة تعالى بتفسيرها وفسّروها بحسبما ارادوا . فنتج من ذلك ان أُطلقت لنا الحريّة في فهم المراد من هذه الاقوال وأُطلقت لنا الحريّة من جهة احكام الكنيسة وهذا لم يكن ليخطر لهم ببال . وانه ليعجبنا اعتدال غاليليو وتعقله ولا سيّما بالنسبة الى العصر الذي نشأ فيه فقد كتب الى خريستينا اميرة تسكانا يقول

من رأيي ان الغرض من الكتاب المقدس هو ان يعلم الناس ما يلزم لخلاصهم وذلك ممّا لا يمكن معرفته الاّ بالالهام الالهي . ولكنني لا ارى موجباً للاعتقاد بان الله الذي وهبنا الحواس والنطق والعقل يريد ان نهمل استعمال هذه المواهب ولا سيما في علم مثل علم الفلك الذي قلّما اشار اليه الكتاب ولم يذكر من السيارات الاّ الشمس والقمر وذكر الزهرة ايضاً مرة او مرتين . واذا سلّمنا بذلك فعندي انه لا يجب ان نلتفت الى آيات الكتاب في البحث عن المسائل الطبيعيّة بل الى الادلّة العلميّة المحسوسة فان الكتاب والطبيعة كليهما من الله . وعندي ان ما يمكن اثباته بالحواس من الامور الطبيعيّة او بالبرهان العلمي لا يجوز لنا ان نرتاب فيه ولا ان نحكم بفساده لمخالفة آيات الكتاب له بحسب الظاهر . ثم ان امر علماء الفلك ليروا بانفسهم فساد ادلتهم لما يفوق طور الامكان لانه بمثابة ما ان يؤمروا لكي لا يروا ما يرون ولا يفهموا ما يفهمون . وانني التمس من هؤلاء الآباء العقلاء ان يميزوا بين التعاليم التي لم تزل في حيّز الراي والتعاليم التي ثبتت بالدليل فيعلموا انه ليس في طاقة علماء العلوم المثبتة بالدليل ان يغيروا آراءهم حسبما يشاؤون وانه يوجد بون شاسع بين الحكم على الرياضي او الفيلسوف والحكم على القاضي او التاجر وان الحقائق الطبيعيّة والفلكيّة لا يمكن ان تُغيّر بسهولة كما يغير الحكم في مسالة تجاريّة . فليتفحصوا ادلة كوبرنيكس واتباعه ويتركوا الحكم فيها لمن هم اهل لذلك وليحذروا ان ينسبوا احكامهم

الطائشة الى الآباء القديسين او الى ذاك الذي لا يمكن ان يغلط . ولا ريب ان الخبر الاعظم يمكنهُ ان يثبت او ينفي هذه المسائل التي ليست من الحقائق الدينيَّة ولكن لا يمكن لمخلوق ان يجعلها صحيحة الاَّ اذا كانت صحيحة بنفسها ولا ان يجعلها فاسدة الاَّ اذا كانت فاسدة بنفسها

ويثبت لنا ما حدث في مسئلة غاليليو امران مهمَّان جدًّا الاول ان المسائل العلميَّة التي تحكم عليها المجامع ذات السلطة انها مضادة لتعاليم الكتاب والآباء والاحكام الكنسيَّة السابقة قد تكون صحيحة . والثاني ان رجال العلم قد يفهمون معنى الكتاب الحقيقي فهمًا اصح من فهم رجال الدين له بدليل ان العلماء الَّذين حُكم عليهم في القرن السابع عشر كانوا مهيبين والَّذين حكموا عليهم كانوا مخطئين

فنشكر الله لانهُ قد ثبت لنا بشهادة التاريخ (الذي هو قضاء الله) ما هي واجباتنا من جهة العلم . فان الله قد علَّمنا ان ايضاح المسائل العلميَّة لم يخوِّل لرجال الدين بل لرجال العلم سواء كانت تلك المسائل مذكورة في الكتاب المقدس وكتب آباء الكنيسة وعلمائها ومجامعها ومحاكمها او غير مذكورة . والحريَّة التي نالها علم الفلك نالتها بقيَّة العلوم كالجيولوجيا والبيولوجيا والسيولوجيا والاقتصاد السياسي والتاريخ والانتقاد الكتابي وكل ما يمكن للبشر ان يدركوهُ ويحقِّقوهُ وذلك يشمل انتقاد الكتاب المقدس نفسهِ اذ قد اتضح ان السلطة الدينيَّة في القرن السابع عشر لم تقدر ان تفهم معناهُ لادينيًّا ولا علميًّا . ويحق للكاثوليكي ابن هذا العصر ان ينظر الى خطإ رومية في مسالة غاليليو وينول انعم بهِ من خطإٍ لاننا نلنا بهِ حريَّة عظيمة

ثم ان الَّذين حكموا على غاليليو كانوا يجهلون ما نعلمهُ الآن من العلوم الطبيعيَّة ويجهلون ايضًا ما كان معلومًا منها في عصرهم ولو علموهُ لتجوا ممَّا سقطوا فيهِ . وكانوا يجهلون ايضًا الحقائق الاجتماعيَّة التي يعلمها خلفاؤهم ويعلِّمون بها . ويظهر ايضًا انهم لم يكونوا يدركون اهم الحقوق واثبتها وهي حقوق الضمير فلم يخطر لهم على ما يظهر ان تهديدهم ووعيدهم يقودان غاليليو الى الحلف بما يخالف ضميرهُ . ولا يمكن لاصدقاء غاليليو ان يبرروهُ من الحنث في يمينهِ ولكنَّ ذنبهُ على الَّذين حاكموهُ واضطروهُ الى هذه اليمين بوعيدهم . فانهُ كان شيخًا طاعنًا في السن فاخطأ مخافة ان يصيبهُ ما اصاب الَّذين حُكم عليهم بالكفر قبلهُ فهو اجدر بشفقتنا منهُ بملامتنا نحن الَّذين لا نخاف من ان نُجبَر على الاختيار بين الحنث والحرق لان العلوم الادبيَّة والطبيعيَّة ابعدت عنا ما وقع بهِ من الخطإ هو والَّذين حكموا عليهِ

ولكنّ طالب الحقيقة المطّلع على تاريخ القرن السادس عشر والسابع عشر لا يسعهُ ان ينكر ان رؤساء ديوان التفتيش ومجمع الانديكس فعلوا ما فعلوا بإخلاص ونية صالحة. فان كان غاليليو يستحق شفقتنا فاولئك الآباء المحترمون احق بها لانهم كانوا في منصب المحامين عن الحق فاخطأوا في فهم معنى سلطتهم واوقفوا تقدّم العلم الذي كان بعضهم يرغب في تقدمهِ اشد الرغبة واضرّوا بالسلطة الدينية التي كان غرضهم الاول المدافعة عنها

ولننظر الآن الى مذهب النشوء بعد ما تقدّم من امر غاليليو فنقول. ان كثيرين من الكاثوليك الفضلاء المكبّين على المباحث العلميّة قد استاؤُا مما كتبهُ المستر مرفي وأُسقط في يدهم وانا اعلم ذلك علم اليقين فلمثل هؤلاء كتبتُ هذه السطور لعلي ازيل ما خامر نفوسهم من الشك والوجوم. وقد اصابهم ما اصاب رجال العلم في القرن السابع عشر لما بلغهم ما حدث لغاليليو حتّى كتب دكارت يقول انهُ اضطر ان يحرق مؤلفاتهِ او يخفيها مخافة ان يصيبهُ ما اصاب غاليليو. الاّ اني اقول لعلماء عصرنا أن لا يحجموا عن اتباع الحقائق العلميّة خوفًا مما يرشقهم بهِ بعض رجال الدين فقد رشقوا غاليليو واتباعهُ بالكفر في القرن السابع عشر وكانوا مخطئين. ولقد قال المستر مرفي "ان نص الكتاب واضح صريح من جهة خلق الانسان حتّى اذا كان مذهب النشوء صحيحًا واراد كتّاب التوراة ان يخدعونا فلا يمكنهم ان يختاروا لخداعنا عبارة اشد خداعًا من عبارتهم" أو ما يصدق هذا القول ايضًا على ما ورد في التوراة عن الطوفان وكونهِ كان عامًّا وهلك بهِ كل ما كان خارج الفلك من الناس والحيوانات ولكن مطران كليفُرد الكاثوليكي يقول ان الطوفان لم يكن عامًّا ولم يهلك بهِ كل ما كان خارج الفلك من الحيوان ولا من الانسان. والحكم في هذه المسئلة للعلم الطبيعي وبهِ يُعلَم ان هلاك كل الحيوانات بطوفان نوح ضرب من المحال وبهِ تعلم ايضًا صحة مذهب النشوء بنوع عام

ولقد كان علماء الدين اقرب الى تأويل معنى الكتاب منذ اربع مئة سنة منهم بعد ذلك فان العلاّمة كاجتان اللاّهوتي الروماني الذي صار كردينالاً سنة ١٥١٧ وقاصدًا رسوليًّا في جرمانيا سنة ١٥١٨ كتب تفسيرًا للكتاب المقدّس يقول فيهِ ان ما جاء في سفر التكوين عن خَلْق حواء من ضلع آدم إنْ هو الاّ مَثَلٌ يُشار بهِ الى شدّة العلاقة بين الزوج والزوجة وان الحيّة التي قيل انها كلّمت حواء ما هي الاّ رمز الى تجربة داخليّة. ولم تنازعهُ الكنيسة في هذا التفسير ولم تحكم بخطإهِ بل انهُ لمّا سُئل البابا لاون الثالث عشر الحالي عن افضل شرح لكتب مار توما قال شرح الكردينال كاجتان

وشرح فرنسكس فراريتس فان فرنسكس يشرح الفلسفة وكاجتان يشرح اللاهوت والآن نحصر كلامنا في موضوع بحثنا وهو مذهب النشوء ونسبته الى علماء البيولوجيا وعلماء اللاهوت . اما من جهة صحة هذا المذهب بنوع عام فمن العبث ان نطيل الكلام في ذلك الآن لان الجمهور قد سلّم بصحته ولا يبعد ان نقوم عليه ادلة حسية في وقت قريب . واما من جهة اطلاقه على جسد الانسان بنوع خاص فلم يزل الحكم في ذلك مبنيًا على قياس التمثيل وقياس التمثيل قد يُضل من يتبعه كما قال دارون نفسه . ولكنّ العلم قد استنتج حقيقة علمية لا يمكنه التوصل الى اثباتها الاّ بقياس التمثيل مثل قولنا ان الجانب الذي لا يرى من القمر ليس مختلفًا عن الجانب الذي يرى اختلافًا تامًّا . وقد ابنتُ مرارًا عديدة انه يمكننا الاستدلال على اصل جسد الانسان بوجهين مختلفين الواحد ان المشابهة بين اجساد الناس واجساد الحيوانات تدلُّ على ان هذه الاجساد كلها متشابهة في اصلها والثاني ان عدم المشابهة بين عقل الانسان وعقول بقية الحيوانات تدل على ان جسد الانسان لم يتكوّن بالاسلوب الذي تكوّنت به اجساد بقية الحيوانات في ما يتعلق بقواه العقلية . ولذلك فمن المحتمل ان الله خلق جسد الانسان وحدهُ بنوع الاعجوبة او انه نشأ نشوءًا طبيعيًّا من غيره من الحيوانات . ولكنّ قياس التمثيل يدعو الى صحة الامر الثاني اي ان جسد الانسان نشأ نشوءًا طبيعيًّا وعندي انه لا يمكننا ان نحتم بانه لم ينشأ نشوءًا طبيعيًّا . والحتم في هذه المسئلة ليس ضروريًّا لنا . فنحن بنعمة الله ما نحن وفينا نفسٌ ناطقة سواء انت مادة اجسادنا من الارض مباشرةً او انت بواسطة تدرّجها في الحيوانات التي دوننا . واما اذا قيل لنا ان خلاصنا الابدي او هلاكنا الابدي يتوقفان على إصابتنا او خطائنا في الحكم في هذا الامر فيصير للمسئلة اعتبار آخر . وعندي انه لا يمكن لله تعالى ان يخلق في اجسادنا ادلة كثيرة تدعونا الى استنتاج نتيجة تؤدي بنا الى الهلاك ولا يخلق في هذه الاجساد دليلاً واحدًا يدعونا الى استنتاج النتيجة الواحدة التي تؤدي بنا الى الخلاص فاذا أطلقت الحريّة للانسان ليعتقد ما يشاء في اصل جسدهِ بحسب ما يبدو له من الادلة ولم يعلّق خلاصه ولا هلاكهُ على ذلك لم يرَ صعوبة في التسليم بانه خُلق من تراب الارض بنوع الاعجوبة او نشأ نشوءًا طبيعيًّا من الحيوانات . واما اذا قيل له ان خلاصك يتوقف على اعتقادك بان جسد الانسان خُلق من تراب الارض مباشرة واذا لم تعتقد ذلك فانت هالك هلاكًا ابديًّا فعندي حينئذٍ ان وجود الادلة الكثيرة في

جسد الانسان التي تدلُّ على انهُ نشأ نشوءًا طبيعيًّا وتخدع الناس هذا الخداع العظيم لا يمكن ان تكون قد وجدت فيهِ بقوة الله الرحيم اله الحق بل بقوة الشيطان الرجيم ابي الكذب (وبعبارة اخرى ان في اجسادنا ادلة كثيرة على ان جسد الانسان نشأ نشوءًا طبيعيًّا فاذا قلنا ان هذه الادلة خادعة وان من يعتقد بنتيجتها فهو هالك لا محالة فتلك الادلة ليست من الله بل من الشيطان الذي يريد هلاكنا . فالذي كوّن جسد الانسان على هذه الصورة هو الشيطان واما اذا لم يكن لهذا الامر علاقة بالخلاص ولا بالهلاك فالانسان حرٌّ ليستنتج ما يشاء بحسب ما يبدو لهُ من الادلة) ولا شيء اضرّ بالدين من ان يجبر اتباعهُ على الاعتقاد بصحة امر ينقضهُ ضميرهم وتنقضهُ احكامهم العلميَّة (١)

ولم يأمر البابا حتَّى الآن ولا المجامع بفساد مذهب النشوء نعم ان بعض الرؤساء قد حذروا الناس من التسليم بهِ واذا سئلتَ عن ذلك اجبت كما اجاب الاب هِل اليسوعي وهو « انهُ في الاستدلال على الحقائق العلميَّة والفلسفية لا يُعتمَد على قول اهل السلطة بل على الدليل » ولا اريد ان اتولَّى تفسير ما يقوله اهل السلطة واكتفي مثلاً كد ان قولهم ثابت اذا كان العقل يؤيدهُ ومنقوض اذا كان العقل ينقضهُ . والارجح ان ما حدث في مسئلة غاليليو لا يحدث ثانية . واذا فرضنا المحال وهو ان اهل السلطة حكموا مثلاً بان الموت لم يحدث على الارض الاَّ بعد سقوط آدم ونحن نرى في الارض احافير الحيوانات التي ماتت فيها قبل وجود الانسان ظهر اهل السلطة في حكمهم هذا بمظهر المجانين

واني اعلم علم اليقين ان كثيرين من رجال العلم يسألون عن الطريقة التي يجب ان يتبعوها ليقوموا بواجباتهم نحو العلم ونحو الدين فلمثل هؤلاء اجيب . انهُ على رجال العلم الكاثوليك ان يؤمنوا بالله ويستخدموا قواهم العقليَّة التي منحهم اياها لاجلهِ غير مبالين بما يتهدَّدهم بهِ المعارضون وان لا يجعلوا الكنيسة عثرة في سبيل العلم . واذا اعتبرنا نصيحة الكردينال بترا والبابا ليون الثالث عشر المذكورتين سابقًا وما تعلمناهُ من مسألة غاليليو

(١) وقد سبقهُ الى هذا القول الامام حجة الاسلام ابو حامد الغزالي في كتاب تهافت الفلاسفة حيث قال "ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف امرهُ فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق ادلتها حتى يخبر بسببها عن رقت الكوفيين وقدرها ومدة بقائها الى الانجلاء اذا قيل لهُ ان هذا على خلاف الشرع لم يرتاب فيهِ وانما يرتاب في الشرع . وضرر الشرع من ينصرهُ لا بطريقهِ اكثر من ضرره من يطعن فيهِ بطريقهِ وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل"

رأينا انهُ من واجبات كل رجال العلم الكاثوليك سواء كانوا كهنة او عامة ان يتّبعوا المباحث العلميّة مستعينين بالمذاهب والآراء التي تساعدهم على هذه المباحث . ويثقوا ان اهل السلطة الدينيّة يُسرّون بكل ما يأول الى تقدّم علم البيولوجيا الباحث عن اصل الحياة واصل جسد الانسان الطبيعي

وجملة القول ان ما حدث اغاليليو قد اطلق الحريّة العلميّة لكل الكاثوليك ليبحثوا في كل فروع العلم بلا معارض وبهذه الحريّة تقدّمت العلوم الطبيعيّة الى حدٍّ لم ينتظرهُ اسلافنا . ويمكننا ان نقول الآن ان الغلبة التي فاز بها مذهب كوبرنيكس قد فاز بها مذهب النشوء ايضاً ولو لم يجاهد كما جاهد مذهب كوبرنيكس وان الحرب التي نشبت بين علماء اللاهوت وعلماء الفلك في القرن السابع عشر لم تبقِ باباً لحرب أُخرى تنشب بين علماء اللاهوت واتباع مذهب النشوء . انتهى

الخاتمة

انتهت مقالة ميفارت بمعناها الشائق . وقد اطّلعنا على هذه المقالة في الشهر الذي صدرت فيهِ ولم نرد ان ننبهها في صفحات المنتطف الاّ بعد ان نقف على ما يقولهُ رجال الدين فيها فلم نرَ انهم ناقضوها مناقضة تستحق ان يُلتفت اليها . وكفى بها حجة دامغة ان ما فيها من الآراء قد عُرض على الحبر الروماني قبل نشرهِ فانعم على كاتبها بلقب الدكتوريّة الرومانيّة دلالةً على انهُ مصادق عليها . ومقام ميفارت بين رجال العلم اشهر من ان يذكر ولا نحسبهُ الاّ صادقاً في ما قالهُ . وسنبين في مقالة أُخرى مقدار الجهاد الذي جاهدهُ رجال العلم في هذا السبيل وكيف استتبّ لهم النصر رويداً رويداً بعد ان عرّضوا انفسهم للخسائر الماديّة والمعنويّة

ونصيحتنا لجمهور القراء الذين ليس شغلهم المباحث العلميّة الطبيعيّة ان يتركوا هذا المذهب وامثالهُ الى ان يثبت ثبوتاً ينفي كل ريب او يُنقَض نقضاً ينفي كل ريب وحينئذٍ لا نبخل عليهم بنشر ما يكون من اثباتهِ او نقضهِ كما اننا لم نبخل عليهم بنشر جميع الادلة التي معهُ والتي عليهِ شأن المؤرخ الامين الذي لا يخشى في تقرير الحقائق لومة لائم

نتيجة اغتصاب العمّال

خسرت بلاد استراليا باغتصاب عمّالها الحديث نحو مليون وربع من الجنيهات فالعمّال انفسهم خسروا اكثر من تسع مئة الف جنيه والتجار نحو ثلثمئة الف جنيه والحكومة نحو ثلاثين الف جنيه